فضائل التوحيد

منتقاة من مؤلفات

العلامة الإمام شيخ الإسلام

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر

ابن قيم الجوزية

المتوفى سنة ٧٥١ هجرية

رحمه الله تعالى

[التوحيد يُثمر كلاما طيبا وعملا صالحا]

"ولاتزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت **بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها.** فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه وتصدقهاجوارحه ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، و واطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللا،غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلا، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلا، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان **لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت**، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى، **وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلاماً كثيراً طيباً يقارنه عمل صالح**" (إعلام الموقعين:(2/299)

[التوحيد رأس العدل وقوامه]

"فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر: **أن يُعرف بأسمائه وصفاته، ويُعبد وحده لا يشرك به،** وأن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:25]. فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل **ومن أعظم القسط التوحيد، بل هو رأس العدل وقوامه.** وأن الشرك لظلم عظيم، والتوحيد أعدل العدل، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات. **فتأمل هذا الأصل حق التأمل** واعتبر به تفاصيله تعرف به حكمة أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، فيما فرضه على عباده، وحرمه عليهم، وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي." (الجواب الكافي:128).

[التوحيد نعيم الدنيا والآخرة]

"والإخلاص والتوحيد شجرة في القلب فروعها الأعمال وثمرها طيب الحياة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة. وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة، فثمرة التوحيد والإخلاص في الدنيا كذلك. والشرك والكذب والرياء شجرة في القلب، ثمرها في الدنيا الخوف والهم والغم وضيق الصدر وظلمة القلب، وثمرها في الآخرة الزقّوم والعذاب المقيم". (الفوائد:164).

[التوحيد مُكفّر للذنوب عند الموت]

"**لِشهادة أن لا اله إلا الله عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها**، لأنها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات ولانت نفسه المتمردة، وانقادت بعد إبائها واستعصائها وأقبلت بعد إعراضها وذلت بعد عزها، وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها، واستخذت بين يدي ربها وفاطرها ومولاها الحق أذل ما كانت له وأرجى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، **وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه**، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه، فوجه العبد وجهه بكليته إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه. فاستسلم وحده ظاهرا وباطنا، واستوى سره وعلانيته فقال: «**لا إله إلا الله**» **مخلصا من قلبه**. وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره والالتفات إلى ما سواه. قد خرجت الدنيا كلها من قلبه، وشارف القدوم على ربه، وخمدت نيران شهوته، وامتلاء قلبه من الآخرة، فصارت نصب عينيه، وصارت الدنيا وراء ظهره،

فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله، فطهّرته من ذنوبه، وأدخلته على ربه، لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة، وافق ظاهرها باطنها وسرها علانيتها، **فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها**، وفر إلى الله من الناس، وأنس به دون ما سواه، لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات وحب الحياة وأسبابها، ونفس مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله. **فلو تجردت كتجردها عند الموت لكان لها نبأ آخر وعيش آخر** سوى عيشها البهيمي والله المستعان." (الفوائد:55).

بسم الله الرحمن الرحيم

[حاجة العبد إلى التوحيد]

"فاعلم أن **حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا** في محبته، ولا في خوفه، ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في الحلف به، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب **أعظم من حاجة الجسد إلى روحه**، والعين إلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به. فإن حقيقة العبد روحه وقلبه، ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو" (طريق الهجرتين وباب السعادتين:99).

[التوحيد دعوة الأنبياء والرسل، وهو أول الأمر وآخره]

"**التوحيد أول دعوة الرسل**، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:59]، وقال هود لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، وقال صالح لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، وقال شعيب لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:36].

فالتوحيد مفتاح دعوة الرسل، ولهذا قال النبي ﷺ لرسوله معاذ ابن جبل رضي الله عنه وقد بعثه إلى اليمن: **«إنك تأتي قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله وحده فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة"** وذكر الحديث وقال: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ»**

فالتوحيد أول ما يدخل به في الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا كما قال النبي ﷺ: **«من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»**، فهو **أول واجب وآخر واجب فالتوحيد أول الأمر وآخره"** (مدارج السالكين:3/444)

[التوحيد أول ما يدخل به في الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا إلى الله]

"قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: 165]، وأصح القولين أن المعنى يحبونهم كما يحبون الله. وسوُّوا بين الله وبين أندادهم في الحب. ثم نفى ذلك عن المؤمنين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: 165] فإن الذين آمنوا وأخلصوا حبهم لله **لم يشركوا به معه غيره**، وأما المشركون فلم يخلصوا لله.

والمقصود من الخلق والأمر إنما هو هذه المحبة، **وهي أول دعوة الرسل، وآخر كلام العبد المؤمن** الذي إذا مات عليه دخل الجنة اعترافه وإقراره بهذه المحبة وإفراد الرب تعالى بها، **فهو أول ما يُدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا إلى الله**؛ وجميع الأعمال كالأدوات والآلات لها، وجميع المقامات وسائل إليها، وأسباب لتحصيلها وتكميلها وتحصينها من الشوائب والعلل" (طريق الهجرتين وباب السعادتين:442)

[التوحيد مفتاح الجنة]

"وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسماوات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أُسِّسَت الملّة ونُصبَت القبلة، وجُرّدت سيوف الجهاد، وهي محض حقّ الله على جميع العباد، وهي الكلمة العاصمة للدّم والأموال والذّريّة في هذه الدّار، والمُنجية من عذاب القبر وعذاب النّار، وهي المنشور الذي لا يدخل أحد الجنّة إلاّ به، والحبل الذي لا يصل إلى الله مَن لم يتعلّق بسببه، وهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السّلام، وبها انقسم النّاس إلى شقيّ وسعيد، ومقبول وطريد، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان، وتميّزت دار النّعيم من دار الشّقاء والهوان، وهي العمود الحامل للفرض والسّنّة، و**«من كان آخر كلامه لا إله إلاّ الله دخل الجنّة»**. (الجواب الكافي:196)

"ولما كان الشرك أعظم الدواوين الثلاثة عند الله عز وجل حرم الجنة على أهله، فلا تدخل الجنة نفس مشركة، وإنما يدخلها أهل التوحيد فإن التوحيد هو مفتاح بابها، فمن لم يكن معه مفتاح لم يفتح له بابها، وكذلك إن أتى بمفتاح لا أسنان له لم يمكن الفتح به" (الوابل الصيب:41).

[التوحيد سبب انشراح الصدر]

"فأعظم أسباب شرح الصدر: **التوحيدُ**، وعلى حسب كماله، وقوته، وزيادته يكونُ انشراحُ صدر صاحبه. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: 22]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: 125].

فالهُدى والتوحيدُ مِن أعظم أسبابِ شرح الصدر، والشِّركُ والضَّلال مِن أعظم أسبابِ ضيقِ الصَّدرِ وانحراجِه" (زاد المعاد:2/41).

[القرآن كله في التوحيد]

"**كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه**، فإن القرآن **إمَّا** خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي، **وإمَّا** أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته، **وإمَّا** خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، **وإمَّا** خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد، **فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم**" (مدارج السالكين: 3/450).

[التوحيد سبب كل صلاح في العالم]

"ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض **فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله**، وكل شر في العالم وفتنة وبلا وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله، ومن تدبر هذا حق التدبر وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي حق غيره عموما وخصوصا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم". (بدائع الفوائد:3/525-526)